المرأة وعنترة

المرأة في شعر عنترة موضوع يتّسم بالجدّية والاهتمام، وهي ـ وإنْ كانت جميلة محبوبة ـ إلاّ أنها لا تُعامل معاملة المتاع المُمتع، ولا تُطْلَبُ رغبةً في الاستمتاع بلذّة. كما أن علاقته بأُمّه تظهر فيها أيضاً سمات الرجولة والحرص على إظهار الفتوّة، دون أن يكون لمحبّتها سلطان عليه يمنعه من تحقيق الأهداف التي عاش من أجل تحقيقها. وهناك علاقات أخرى بين عنترة والمرأة، مثل تلك العلاقة الودّية الصارخة من جانبٍ واحد بين زوجة أبيه سُميّة وبينه، كما أن هناك علاقات أخرى بين نساءٍ عابرات في حياته وبينه، وهذه تُظهر أخلاقه العامة في معاملته للمرأة.

أمّا علاقته بأُمّه، فالواضح أنّ فيها الكثير من الشدّة في عدم تجاوبه مع رغباتها الأُموميّة. ولعلّ في ذلك المنظر الذي رأيناه عندما جاءت إليه أُمّه زبيبة لتُثْنيه عن

الاستماتة في القتال كلّما استعرت المعارك ما يعطينا صورةً حيّة لتلك العلاقة. وكانت أُمه بلا شك تعرف الكثير عن تهوّره في القتال، وكانت تراه وحيداً بين أبناء عمومته الذين كانوا بالنسبة لها غرباء لا تربطهم بها صلة قرابة أو وحدة أو هدف. وكانوا بطبيعة الحال مُغيرين يريدون أن ينهبوا الآخرين بغرض السلب والسبي ليكون مصير بعض النساء كمصيرها من حيث العبودية. وكانت تخشى على ابنها المُستميت من أن يُقتل في معركة غير معركته، وأن يكون جنوده من غير لونه، وممّن لم يتحدّثوا عنه في أيّ يوم من الأيام حديثاً فيه ارتباط بوحدة الهدف. ولقد كانَ الفرسان ـ وخاصة زعماءهم ـ يرون فيه غريباً يحمي غرباء عنه، مثل قول قيس ابن زهير وهو ملك القوم من أنه ما حمى الحِمى إلاّ ابن السوداء، فإذا كان هذا هو موقف المنتفع الأوّل والأكبر من بسالة عنترة ونضاله، فكيف يطيب لهذه الأُمّ المنام وهي ترى وليدها لا يجد الإنصاف من أهله، فكيف يا تُرى يجد الإنصاف من أعدائه؟

ومن ثَمَّ كانت زبيبة تُثني ولدها عنترة عن اقتحام المعارك الدمويّة التي قد تُودي بحياته. ولهذا، فإنها أكثرت من إثنائه عن تلك المخاطر، وكان عنترة جافًّا في حديثه معها حين أجابها:

فاقنيْ حياءكِ لا أبا لكِ واعلمي
أني امرؤٌ سأموت إن لم أُقْتَلِ

ويبدو أن إلحاح زبيبة على ولدها لكي يُبْعد نفسه عن مخاطر الموت كان سبباً في شعور عنترة بالضجر الذي انتابه من حديثها، تماماً كما يفعل الفتيان إن شعروا بشيءٍ زائد من التدليل من والدتهم، أو الاهتمام المُفرط بمأكلهم، أو تعبهم، مما يجعلهم يشعرون وكأنما لم يبلغوا مبلغ الفتوّة والرجولة. وهكذا كان عنترة في مطلع شبابه يتضجّر من اهتمام والدته ومن حديثها له في هذا الشأن. ولمّا أكثرت عليه الحديث في أكثر من مناسبة ذكر ذلك صراحة في شعره:

تعنّفني زبيبة في الظلام
على الإقدام في يوم الزّحام
تخاف عليّ أن ألقى حِمامي
بطعن الرمح أو ضرب الحُسام
مقالٌ ليس تقبله كرام
ولا يرضى به غير اللّئام
فعيشك تحت ظلّ العزّ يوماً
ولا تحت المذلّة ألف عام

وفي كِلْتا التجربتين نجد جوّ القصيدتين السائد هو الظلام، كما أن السّمة الطاغية هي خوف الأُمّ على ابنها. وعندما يردّ عنترة على أُمّه بهذا الردّ العنيف، فليس مردّ ذلك أنه عنيفٌ معها، ولكن الفتوّة والشباب هما الطابع المتغلّب على إجابته، وهما تعبيرٌ صادق عن نفس فتيّة مثل نفسه، وكان لا بدّ أن يُجيب بهذه اللّهجة التي يبدو فيها الصدق والوضوح.

ونجده يدافع عن أبناء عمومته من آل عبس زاجراً أُمّه التي تريد أن تُخَذِّلَه من الوقوف في صفّهم، ويرفع عقيرته وهو يحدّثها بنَسَبه العبسيّ وبمناصرته لهم ويفتخر:

إني امرؤ من خير عبس منصباً
شطري وأحمي سائري بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
أُلْفِيتُ خيراً من مُعِمٍّ مُخْوِلِ

فهذه كلّها إجابة لكلمات زبيبة التي حاولت مراراً أن تُثنيه عن الوقوف في صفّ العبسيّين بتلك القوّة وذلك التفاني. وكانت ترى أنّ الأهداف غير متّحدة، ولكن عنترة ربط مصيره بالانتصار للعبسيّين في ساحات القتال، والحرب هي التي منحته الحرية، فإن لم يُقاتل

فما هي فائدته للحيّ. إنّه عاش من أجل الدفاع عن العشيرة التي اعترفت به كأحد أفرادها من خلال القتال المرير، فلا يمكن أن يقبل من أُمّه زبيبة حديثاً ينمّ عن التخذيل والتهاون في نصرة القبيلة. ولكن لا يمكن أن تكون زبيبة غير راضية بكفاح ابنها الفارس الضّرغام، بل إنه كان يشرّفها أن يكون عنترة ابنها، وكان لا يمكن أن تنام وهي قريرة العين لو لم يكن ولدها حامي الحِمى والذّائد عن القبيلة.

هذه القبيلة التي أفنى عنترة حياته في الدفاع عنها لم تمنحه من التقدير مثل ما منحها من الكفاح، وكانت تقسو عليه أحياناً بسبب أُمّه زبيبة وشكلها وقوامها وأطرافها، وكانوا يتحدّثون عنها بكلّ ما هو مُسفّ إشباعاً لرغبتهم في السخرية. وكان هذا الكلام يمضُّ عنترة ويعذّبه، ولم يستطع له دفاعاً حتى اضطرّ في إحدى قصائده أن يجيب هؤلاء الشانئين بأنه بالرغم من كل ما يقولون من صفات له ولأُمّه، فهو كما يرى نفسه:

وَأنا ابن سوداء الجبين كأنها
ضبعٌ ترعرع في رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامةٍ
والشعر منها مثل حبّ الفلفل

كما يرى أنه ليس لديهم ما يقولونه زيادةً على هذا الذي أعلنه هو نفسه، فهل هم مُنتهون؟

ويبدو أنّهم في آخر الأمر انتهوا إلى هذا الحدّ؛ لأن المعروف عن عنترة بأنه أحد أغربة العرب وهم السليك بن السلكة، وخفاف بن ندبة وثالثهم هو. وكان كلّ مِن صاحبَيْه دُعِيَ بأُمّه إلاّ هو، فإنه لم يقل عنه الرواة ولم يُعرف بعنترة بن زبيبة، بل عُرِف بأنه عنترة ابن شدّاد العبسيّ، وهذا دلالة على أنّه تمّ الاعتراف به قبليًا وعربيًا وسودانيًا أخيراً؛ فعسى أن تقرّ عينه الآن بعد طول أرق، وعسى أن تنام أُمّه بعد شدَّة خوفٍ عليه.

مع هذه الصرامة التي كان يواجه بها عنترة أُمّه، نجد أنّ أسلوبه مع عبلة يختلف كلّ الاختلاف، وما ذلك إلا لأنّ أسلوب المرأتين في الحياة متباين تمام التباين؛ فبينما كانت زبيبة تريد لابنها حياة الدَّعة والسِّلم، كانت عبلة ترى في زوجها البطل المغوار، الذي لا يُشَقّ له غبار، والذي تتضاءل أمامه أعمال كل فارس، سواء أكان عبسيًا أم عربيًا. وكانت أعمال عنترة هي موضع فخر زوجته، وكان الإعجاب بينهما متبادلاً ـ لا في المعارك فحسب، بل في البيت أيضاً ـ وقد جاء عنترة في أحد الأيام من معاركه الدامية، وخلع ملابسه من دروع وزرد أمام عبلة، فنظرت إليه في إعجاب

وأخذت تعجب كيف يمكن لهذا الرجل النحيف أن يخطف أرواح الفرسان الذين كثيراً ما كانوا أضخم منه جثّة، وأعظم بنياناً. وكما أُعجبت عبلة بصاحب ذلك الجسد الناحل، فإنّ عنترة كذلك أعجبه إعجاب عبلة به، وسرَّته نظرتها الفاحصة إليه، فثارت فيه مشاعر الرّضا والسرور، وخاطب عبلة في ابتهاجٍ واضح:

عَجِبَتْ عبيلة من فتًى متبذّل
عاري الأشاجع شاحب كالمنصل
لا يكتسي إلاّ الحديد إذا اكتسى
وكذاكَ كل مغاور مستبسل
قد طال ما لَبِسَ الحديدَ فإنما
صدأ الحديد بجلده لم يُغسل
فتضاحكت عجباً وقالت يا فتى
لا خير فيك كأنها لم تحفل
لا تصرميني يا عبيل وراجعي
فيَّ البصيرة نظرة المتأمّل
إمّا تَرَيْني قد نحلتُ ومَنْ يكن
غرضاً لأطراف الأسِنَّةِ ينحل

فالإعجاب المتبادل بين الاثنين قرّب ما بينهما من

تفكير، ومن ثَمّ فقد كان عنترة يُكثر من مطالبة عبلة بالسؤال عنه من الفرسان، وما كان يفعله من عجائبِ في ساحة الوَغَى. ومَنْ يدري، فربّما كانت زبيبة ترى في عبلة امرأة ذات نفوذ قويّ مضادّ لنفوذها على ابنها ممّا لم يكن مرضياً لها. ولكن موقفها كجارية في حِمى القبيلة جعلها لا تبوح بسرّها لعبلة، وجعلها غير مسموعة الصوت حتى مِنْ ولدها الذي كانت آذانه لا تصغي لحديثها المثبط للهِمَم. وكان موقف المرأتين مختلفاً جداً عن بعضهما البعض؛ فبينما كانت زبيبة مثبطة، كانت عبلة مثيرة. وهل هناك إثارة أقوى من أن تقول له: «يا فتى لا خير فيك»، وهي تعلم أنّ الخير، كلَّ الخير، في هذا الجسد النّاحل الذي يستطيع أن يجندل ضخام الأجسام بضربةٍ فيصل أو طعنة سنان؟ ولكن كلّما حقّق عنترة معجزة طلبت عبلة منه مزيداً من المعجزات، وهكذا كانت عبلة هي كل شيء. وأمّا أُمّه، فلا مكان لها ولآمالها التي تنطوي على الاستكانة والسّلم.

وعبلة هي الشعلة المؤجّجة لكفاح عنترة، سواء أكان ذلك في حروبه مع قبائل الجزيرة العربية، أم ضدّ الأعاجم من الفرس. وقد كانت حروب العرب ضدّ العجم التي اشترك فيها عنترة إحدى الملاحم التاريخية

الرومانتيكية؛ إذ خرج عرب الجزيرة خروج رجلٍ واحد، وكان من بين مَنْ خرج عنترة، وذهبوا إلى تخوم فارس لتدويخ الأعاجم. وكانت نفوس أُولئك العرب تجيش بالمشاعر التي تحلم بالانتصار الساحق على الفرس وهزيمة فرسانهم. وكان كل عربي يعتقد بأنه هو الذي سيسحق كسرى وليس غيره؛ لأنه (ندٌّ له)، وهذا عنترة يتوعّد كسرى:

فوَيْل لكسرى إن حللتُ بأرضه

وويلٌ لجيشِ الفرس حين أُعَجْعج

ووصل عنترة إلى أرض كسرى وأخذ يعجعج ويعجعج، ويصادم الفرسان والأبطال حتى وقع أسيراً في أيدي الفرس. وهناك تضاءلت قوّته، ولكن اعتزازه بعنتريّته وماضي أيّامه ما زال متوقّداً، وكانت الشعلة التي تجعل ذلك التوقّد متوهِجاً هي دائماً عبلة. لقد كان دائماً يحارب من أجل عبلة، ولكن مَن الذي سيحارب من أجلها الآن بعد أن سقط أسيراً في أيدي الأعاجم؟ وهل هناك من سيحمي عبلة بعد أسره؟ وكان يرى في وقوعه في الأسر فخراً له يليق به كفارس بطل؛ لأن:

فخر الرجال سلاسلٌ وقيود

وكذا النساء بخانقٍ وعقود

ولكن هذا فخر مؤقّت، لأنه تذكر عبلة، وهو في حاله تلك، وشعر بحاجته إليها، ولمّا كان وجودها بالقرب منه مستحيلاً، فإنّه طلب منها أن تنوح عليه:

يا عبلُ قد دنت المنيّة فاندبي
إن كان جفنك بالدموع يجودُ
يا عبل إن تبكي عليَّ فقد بكى
صرف الزمان عليّ وهو حسود
يا عبل إن سفكوا دمي ففعائلي
في كل يوم ذكرهنّ جديد

وبدلاً من أن يعطي المجال لعبلة لكي تبكيه بما هو أهلٌ له، أخذ يرثي نفسه بما يَعْرف عنها، وكعادته جعل عبلة هي محور مأساته، أو جعل يكرّر اسمها في أسى واضح لفراقها. لكن عنترة في هزيمته هو عنترة في انتصاره، فهو لم يَنْسَ اعتداده بنفسه، وفخره بأعماله، وكان يشعر باطمئنان؛ لأن أفعاله ستدوم مدى الدَّهر.

وعلى كل حال، فإن الفرس لم يقتلوه. وتقول الروايات: إن كسرى أطلق سراحه وأكرمه حتى أخذ عنترة يمدحه بأكثر من قصيدة.

بيد أن المرء كان يودّ أن يعرف عمّا إذا كان عنترة

قد مات قبل عبلة أم بعدها؟ وفي ديوانه لا توجد مرثية لعبلة مما يجعلنا نعتقد بأنّها ماتت بعد عنترة. أمّا عنترة نفسه، فقد عُمُر طويلاً ثم مات أو قُتل مع اختلافٍ في الروايات. ومع أنه تقدَّم في السنّ، إلاّ أن جذوة حبِّه لعبلة لم تفتر مطلقاً، فما من قصيدةٍ في شعره، إلاّ وفيها ذِكْرٌ لعبلة، فهو عاش محبًّا، وظلّ محبًّا حتى آخر رمق في حياته.

سيطر حبّ عبلة على عنترة سيطرة تامّة حتى لم يترك له مجالاً لكي ينعم بحبّ أُخريات، كما أن هذا الحبّ وهبه أخلاقيات فريدة لم تُعرف عند غيره. وأهمّ تلك المُثُل التي تحلّى بها هي علاقته بجاراته في الحيّ، فهو لم يكن يسمح لنفسه بأن ينظر إليهنّ أو يتغزّل فيهنّ، وكيف يفعل ذلك وهو حامي الحِمى؛ لذلك فإنّه قال:

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

وبذلك أصبحت جاراته في مأمنٍ من نظراته وغاراته. ولكن هل يا ترى كان ذلك يُعدّ مكرمة عند الجارات أنفسهن؟ ألم يكن عنترة حديثهنّ جميعاً؟ ألم يكنّ ينفسْنَ على عبلة ذلك التراث الضخم من

الفروسية؟ ألم يكنّ ينقمْنَ عليها أن تحظى بكل ذلك الشعر وحدها؟

بالطبع كانت بعض نسوة الحيّ ممن أعجبن بعنترة، ولربما كانت منهنّ مَنْ أفصحت عن شعورها ومَنْ لم تُفصح. بيد أنّ زوجة أبيه سميّة كانت أكثر النساء شجاعة حين أبدت لعنترة حبّها له، وإعجابها به حتى راودته عن نفسه.

ولكن المُثُل العليا التي تحلّى بها عنترة جعلته يأبى أن ينظر إلى جارته، فهل يمكن أن تسمح له تلك المُثُل بالانجراف أو بالانحراف؟ بالطبع لا. ولم تكن سمية تعرف شيئاً عن عنترة من خلال مُثُله، وكانت تأمل أن تستغلّ شبابها وجمالها لكي تسترعي انتباهه، فيرغب فيها كما كانت ترغب فيه. ولكن كان ردّه لها بالرفض من أقسى الردود، وجعلها تتّهمه بخيانة والده في زوجته، وتشكو لأبيه على أنه راودها عن نفسها ولكنّها امتنعت. وكان أن استشاط والده شدّاد غضباً وضرب ابنه بالسوط أوّلاً، وبالسيف ثانياً حتى أدماه. وتحرّك ضمير سمية واستيقظ لأنها تجنّت على هذا الفتى دون جريرة، فارتمت عليه لتجنّبه أذى السوط والسيف، ثم ذرفت عيونها دمعاً جعل عنترة يتعجّب:

أمِنْ سمنِة دمع العين تذريف
لو أن ذا منكِ قبل اليوم معروف
كأنها يوم صدّت ما تكلّمني
ظبي بعسفان ساجي العين مطروف
تجلّلتني إذ أهوى العصا قبلي
كأنها صنمٌ يعتاد معكوف
العبد عبدُكُمُ والمال مالُكُمُ
فهل عذابك عني اليوم مصروف

هذه السِّمات الخُلُقيّة كانت واضحة في مسلك عنترة في كلّ مكان، وهو ينأى عن استغلال مظهره وأعماله في كسب قلوب العذارى. وكان يعرف ذلك وذكره في شعره:

وكواعب مثل الدّمى أحببتها
ينظرن في خفرٍ وحُسن دلال

ولكن لا يعني هذا أن يتمادى في الاستحواذ عليهنّ جسداً، كما استحوذ عليهن قلباً. بل إنه اهتمّ كثيراً بمصير جاراته، وما قد يسبّبه لهنّ الجار السيىء، وهذا جعله يضع قوانين خُلُقية رائعة لكل مَنْ أراد أن يشرب الخمر، وكان من أهمّ آرائه أنّه:

لا يشرب الخمر إلا مَنْ له ذمم

ولا يبيت له جار على وجلِ

فهل هنالك قانون خُلُقيّ يتّصل بشرب الخمر في الجاهلية أروع من هذا الذي وضعه عنترة؟ إنّه كان قد جعل من نفسه حامي الحريم في الحرب والسِّلم، وكانت نفسه تأبى أن يكون حاميهنّ في الحروب ثم يعتدي عليهنّ في أيام السِّلم. ومن ثَمّ، فقد أصبح واضحاً أن تصرّفات عنترة في كل الحالات لم تنحرف عن المسؤوليات التي أوْجبتها الظروف عليه، وما تلك الظروف إلا مقدرته الفائقة في القتال، واستخلاص النصر من براثن الهزائم، حتى أصبح هو المنتصر دائماً في كل معركة خاضها.

كانت هناك دوافع تدفع عنترة بقوّة لكي يشقّ طريقه من بين مصافّ العبيد إلى طليعة الأحرار الأفذاذ. وكانت هناك قوّة دافعة جبّارة تقوم بذلك. هذه القوّة الجبّارة كانت قوّة الحب، وهي التي كانت تسيطر على نفسيّته ليتفوّق على غيره من الرجال. ويبدو أن عنترة وقع تحت سيطرة هذا الحبّ منذ صغره حين نشأ بجانب عبلة، فكان يريد أن يظلّلها برعايته وحمايته، ثم حبّه، ثم هيامه كلّما تقدّمت به السنون؛ فلما كانا يافعين

كان حبّه يافعاً، حتى إذا شبّ، شبّ حبه أيضاً، ولمّا بلغ أشدّه كان حبّه عارماً جارفاً.

والحبّ ـ كما يعلم الكثير منّا ـ قوّة تجعل من الجبان شجاعاً مقداماً، ومن الخامل رجلاً مبرّزاً، ومن الميت مخلوقاً تدبّ فيه الحيوية. وقد عرف العرب ذلك، كما عرفه غير العرب، وقصّوا عنه الأقاصيص، ونظموا فيه من الأشعار ما نظموا، وروت بعض كتب الأدب العربيّ كيف أنّ الملوك في الزمان الغابر كانوا يحفزون أبناءهم من أولياء العهد ليكونوا ذوي شخصية إدارية حكيمة بأن يجعلوا طريقهم محفوفاً بشراك الحبّ. وقد ذكروا أن بهرام جور ـ أحد ملوك الفرس الأقدمين ـ لم ينجب سوى ولد واحد كان هو الذي سيعتلي العرش بعده، ولكنه كان ولداً ضعيف الهمّة، فاستشار والده كبار علماء بلاده عن كيفية إذكاء روح الحميّة والنَّخوة فيه لكي يهتمّ بمسائل الدولة، وأُمور الرعيّة، ولم تطل فترة بحثهم ليصلوا إلى نتيجة اتّفقوا عليها، وهي أنه لا بدّ من سحب هذا الشاب إلى بحر الحبّ العميق ليسبح فيه، ويتعلّم مسؤوليات الحياة. وانتهى الأمر بأن اعترضت طرق حياته كثير من الغانيات حتى وقع في غرام إحداهنّ، فما كان من العلماء الأجلاّء إلا أن نصحوها بأن تمتنع، وتتمنع، وترفض تقرّبه، وتُبدي له

امتعاضها من حبّ كل مَنْ كان خامل الذِّكر، ضعيف الهمّة، وما زالت تحمّسه لكي يلعب دوراً هامًّا في حياته، ويبزّ أقرانه في كل مضمار، فوجد نفسه في آخر الأمر في منافسة حادّة مع رفقائه في كل شيء سوى ولاية العهد، فشحذت همّته، وقوي عوده، وارتفعت روح المسؤولية عنده، وكل ذلك لكي يبرهن لها بأنه جديرٌ بها. وهكذا، فإنه في آخر الأمر كسب حبّها وتقديرها، وتزوّج بها. وكان على ما قيل من أعظم ملوك الفرس الذين عرفهم تاريخهم.

ولربما هذه كانت من التجارب التي جعلت ابن الأحنف الشاعر العربي يقول:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى

ولا خير فيمن لا يحبّ ويعشق

بل ذهب بعض المعاصرين من شعراء المهجر إلى أن يقول: مَنْ لم يحبّ، فإنه لم يولد.

وكان بعض شعراء العرب يجرّد الشخص الذي لم يعشق ويجرّب الحبّ من إنسانيّته، فهذا أحدهم يقول:

إذا أنت لم تعشق ولم تَدْرِ ما الهوى

فأنت وعَيْرٌ في الفلاة سواء

أمّا الشاعر الآخر، فقد استكثر على مَنْ لا يحبّ أن يكون حيواناً، ولذلك نعته بالجمود، فقال:

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى

فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

فهذا الدافع الغريزي، وأعني به الحب، هو من أهم ما يمرّ بالمرء من تجارب في الحياة، وهو الذي يحرّك الناس من جمود وخمول إلى طموح متوثب جبّار، وهو الذي يرفع من شأن الإنسان إذا ما أُصيب به في يومٍ من الأيام.

ومن القصص العالمية التي نراها تشبه إلى حدٍّ ما نشأة عنترة وعبلة، وتجاوزه عدد العبيد ليصل إلى صفوف الأبطال تلك المسرحيات الغربية، وخاصة مسرحية عطيل التي ألّفها الشاعر الإنجليزي العبقري شيكسبير نقلاً عن سابقيه من إيطاليا. تلك المسرحية أبرزت لنا عطيل كفارس مسلم عربي أسمر اللون، مسودّ البشرة كناية عن أنه لم يكن أوروبيّ الأصل، وكان يدافع عن إحدى الدُّويلات الإيطالية في البرّ والبحر ضدّ أعداء بلاده التي كان قد انتمى إليها، ولكن بعض أصحابه من الأوروبيّين كان يحسده على إقدامه وبطولاته وتفوّقه في القيادة الحربية، والشجاعة

المتناهية. وكان عطيل قد أحبّ فتاة إيطالية الأصل تدعى ديدمونة، وتزوّج بها. وهكذا علا نجمه منذ أن وقع في حبّها، وبنى بها، وأصبح بطلاً من أبطال الحبّ والحرب. غير أن أعداءه، وخاصة أحد الذين كانوا يتودّدون إليه، ويدّعي صداقته أخذ يحيك شباك المؤامرات حول وفاء ديدمونة لذلك البطل العربي المسلم، وطفق ينفث سموم الغيرة في نفسه لكي يجعله يقضي على زوجته. ولعلّ ما يهمّنا في هذا الحديث هو وجه الشبه بين حياة بطلين أسودين في الآداب العالمية، وفتاتين لهما بشرة بيضاء، وحبّ جارف صعد بالرجال من القاع إلى قمّة المجد، فعاشا على مدى الأيام.

صعد الحب الجارف بعنترة إلى آفاق البطولات العربية، وبزّ غيره من الصبيان، ثم الفتيان، ثم الرجال. فكان الفارس الذي لا يشقّ له غبار، ولم يكن يُدانيه في تلك الرفعة إلاّ ابن عمّه عطيل ذلك البطل العربي الإفريقي الإيطالي.

والحبّ له تأثيرات عديدة على المُحبِّين، فهو ليس حافزاً للشهرة البطولية فحسب، ولكنه فوق كل شيء يجذب المحبّ إلى محاسن الأخلاق والفضائل الكاملة. إنّ مجرّد وقوع شخص ما في حبّ آخر، سواء أكان رجلاً أو امرأة، يجعل الحبيب مدركاً إلى أن موقفه في

السلوك العام يختلف بعد الحبّ عمّا كان عليه الحال قبل الحبّ؛ فالمرأة إذا كانت بقلبٍ خالٍ من الحبّ قلَّ أن تعنيها بعض مظاهر الحياة، طالما أنها كانت في حالة فقدان للثقة بنفسها وبمفاتنها وبشخصيتها. ولكن بمجرد أن تجد مَنْ يُظهر اهتماماً بما تقول، وبما تظهر به، وبما تفعله، فإنها تتبدّل إلى امرأة أكثر حساسية واهتماماً، سواء عفويًا أو عن قصد؛ فالاهتمام بها، وبما تفعل يحفّزها إلى أن تسلك سلوكاً حسناً محبوباً، فتتغيّر حتى في لونها وابتسامتها والتفاتتها وخطوتها واتّزانها. وما يحدث للمرأة من تغيير يحدث كذلك للرجل، فهو ليس محميًا من أغراض التغيير، فتراه ـ إلاّ إذا كان من يابس الصخر الجلمد ـ يتغيّر في مسلكه ومظهره ومخبره، بل وطول وقوفه أمام المرآة، ويصبح «جنتلمان» كما يحلو لبعض الناس أن يسمّوه.

يبدّل الحب بعض السلوك المتعارف في البيئة والمجتمع، وما ذلك إلاّ لأن هذه الغريزة تدفع الإنسان إلى التخلّق بما يعتقد أنه الأقرب إلى قلب المحبوب، فمن ذلك مثلاً ما كان يفعله عنترة، ويعرف أنه أقرب إلى قلب عبلة فيسرّ إليها هامساً:

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالكِ

إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

يخبرك مَنْ شهد الوقيعة أنّني
أغشى الوَغَى وأعفّ عند المغنم

أو قوله:

أثني عليَّ بما علمتِ فإنّني
سمح مخالطتي إذا لم أُظْلَم
فإذا ظُلِمْتُ فإنّ ظلمي باسل
مُرٌّ مذاقته كطعم العلقم
وإذا شربتُ فإنّني مستهلك
مالي وعرضي وافر لم يُكْلَم
وإذا صحوتُ فما أقصر عن ندى
وكما علمتِ شمائلي وتكرّمي

أمّا إن كان في الحيّ، فهو يحمي نساءه من الأعداء، بل ومن نفسه أيضًا، فلا يتعقبهنّ وهنّ يسرن من مكانٍ لآخر، ونراه شهماً يغضّ الطرف عن فتيات الحيّ قائلاً:

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

ثم هو لا ينسى أهله حين يهاجمهم الأعداء،

فينهض للدفاع عنهم رغم الجفوة التي قد تحدث بينهم وبينه:

سكتُّ فغرّ أعدائي السكوتُ
وظنّوني لأهلي قد نسيتُ

إنّ الحب الذي ألمّ بقلب عنترة جعله فريداً من نوعه في صحراء الجزيرة العربية، وأصبح يمثّل إنساناً بحضارة مختلفة عن أضرابه من سكّان الجزيرة. لقد جاء من بطن أُمّه بمُثُل جديدة، وخلالٍ لم تكن شائعة بين أضرابه من سكّان شبه الجزيرة.

كان عنترة - فيما وصل إلينا من شعره - يمزج بين الفروسية والحبّ، وكان يربط ما بين الابتسامة الساطعة والسيف اللامع، كما كان يربط بين الفارس المستلئم المتلثم وبين الحسناء المقنّعة، حيث يقول:

إن تغدفي دوني القناع فإنّني
طبٌّ بأخذ الفارس المستلئم

فهو هنا يصوّر لنا الفارس الذي لبس لأُمّته وقناعه، والذي صعب اصطياده في ميدان المعركة بتلك الغانية الجميلة التي تصطاد مهجات الأبطال، وتصرعهم بلحظها الفتّاك، وابتسامتها البرّاقة، فتودي بحياتهم إلى

أن يصل إليها عنترة فيصطادها ويأسرها ضمن مَنْ أسر من أبطال المعارك وملثميهم، وهكذا لا يستعصي عليه فارس أو غانية.

وتفنّن عنترة في نصب الشراك لمحبوبته، فهو لم يقنع بجعل سيفه ورمحه ومهارته طُعْماً في شراكه فحسب، بل إنه عمد إلى استخدام أساليب متطوّرة من الاتصالات الخطابية كان لها مفعول طيّب. وكان من تلك الكلمات التي رواها لنا الأقدمون من أدباء العرب ونقّادهم، قوله:

ولقد نزلتِ فلا تظنّي غيرَه
مني بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَم

فهو قد أعطى هنا حبيبته مكانة سامية في سماء الحبّ؛ إذ هي تأسر المحبّين، ولا تستأسر لهم، فهم دائماً أسرى جمالها، وهي طليقة بقوّة جمالها. وبهذه الكلمات القرمزية، والتعابير الأرجوانية، والأحاديث المغناطيسية الجذّابة التي كان ينطقها عنترة، استطاع هذا الفارس الشاعر أن يؤثّر على حبيبته، ويستحوذ على قلبها مضيفاً إلى ذلك نغمة من الإخلاص، ونبرات من التفاني.

ولكلّ شاعر خصائصه التي يتميّز بها، ويمكن

لقارىء الشعر أن يميّز بين هذا وذاك بحكم ما بذلك الشعر من خصائص؛ فشعر المتنبّي ـ مثلاً ـ لا تكاد تقرأ بضعة أبيات منه حتى تواجهك تجربته في الحياة، وما استخلصه منها، أو يشدّك منظر المعركة، أو الحديث عن نفسه. وإذا قرأت شعراً وقد طُلِي بالحلي والموسيقى والمقارنات عرفت أنك مع أبي تمّام. وإذا طالعتَ شكوى من الزمان، وعدم رضاء بما في الحياة، وتجاهل الناس للناس مع شيء من الظلمة والحزن تأكّدت أن ذلك هو أبو العلاء. ويمكنك أن تقيس شعر ابن أبي ربيعة على هذا النّحو، فتجد فيه التباهي الخفي المظاهر بما يجد من تعلّق النساء به، وتعقبهن له في كل غدير، واتّباعه لهنّ في كل مكان، والتسابق على إرضائه واجتذابه، وتجاوبه معهنّ بعد أن مِلْنَ عليه كل الميل. أمّا إذا سمعت ضجيج السلاح، ورأيت شرر سنابل الخيل، ووقع حوافرها، وصليل السيوف، والدماء المراقة، والفارس الذي يربأ بنفسه أن يتكسّب من سيفه وفروسيته، والمحارب الذي لا يحتقر غيره من الفرسان، بل يقدّر فيهم فروسيّتهم وبسالتهم، وينزل إلى المعارك للذّود عن حرمات الآخرين، وحفظاً لممتلكاتهم، عرفت أنه عنترة ذلك الشخص الذي لا يتغيّر ولا يبتعد عن مُثُله العليا قيد أنملة. ولهذا، فإنك تعرفه صديقاً لك لا يكتمك أسراره، ولا يكذب في أقواله، وهكذا عاش

عنترة مع نفسه ومع الآخرين من أفاضل المحاربين.

وقد كان عنترة، بالإضافة إلى أنه محارب وقائد، مراسلاً حربياً يذيع حوادث المواقع على جميع أرجاء عالمه. ولذلك، فقد جاءت رسائله الحربية حيّة تُظهر المعارك، وتُصوّر التصادم والمواقع كما هي بلغة عميقة الأثر. ولو لم يستعمل عنترة شعره في تسجيل تلك المعارك لضاع الكثير من أثرها، ولكنه عرف كيف يستخدم شاعريّته في سرد تلك المواقع الحربية، وما يكتنف نفوس المحاربين من مشاعر خوف وشجاعة، وتهوّر وخور، ورغبة في السلب، وتعفّف عن المغنم، ونكران للذات من ناحيته، واقتناص الفرص لأخذ الغنائم كما كان يفعل زملاؤه من الفرسان.

وقد رحل عنترة من ديار عبس التي كانت بين يثرب وأواسط نجد إلى تخوم العراق للاشتراك مع بقية القبائل العربية في محاربة ملك الفرس، ولم يُثْنِهِ عن غرضه السامي بعد المشقّة، أو طول الطريق، أو مقارعة الإمبراطورية الفارسية. وربما خرج في خِفْية من أصحابه للدفاع عن العروبة. ولا شكّ أنّها كانت رحلة خالدة تلك التي قام بها، والتي انتهت بمواقعة جيوش كسرى، وكسر شوكتهم بعد أن وقع كثير من أبطال العرب في الأسر، ومنهم شاعرنا وفارسنا عنترة. ثم انتهت تلك

الأزمة بمصالحة وتكريم كسرى له ولزملائه مما دعاه إلى مدح كسرى اعترافاً بأنه صنوٌ له في العفو، وكان مطلع قصيدته:

يا أيها الملك الذي راحاته

. . . . . .

ويجسّد عنترة المُثُل العليا التي يراها الإنسان الخيِّر، والتي يرغب في أن يتخلّق بها حتى ولو لم يجد مجالاً في أن يمارسها بالفعل في حياته اليومية. إنّ هذه الأخلاق العالية التي تتمثّل في سيرة عنترة إنما هي نبراس للآخرين، وستظلّ دائماً حيّة في النفوس يتذكّرها المرء بين حينٍ وآخر ليتخلّق بها في وقتٍ من الأوقات، وهي التي تعطي الإنسان شعوراً بالرضى عن أنه سيكون يوماً ما مثل عنترة في مسلكه، وسيكون له نصيب من هذه المُثُل العليا طالما أنّ القدوة الصالحة قد وضعت هذه الأُسس أمامه، وأن كل إنسان يستطيع أن يصل إلى ما وصل إليه عنترة إذا ما وطّن عزمه على اتّباع تلك القدوة الحسنة.